٥ ـ في أبعاد الأدب بشكل عام وأدب البسملة بشكل خاص

الإيضاح الخامس: تنتمي البسملة إلى مقولة الأدب كما أشرنا من قبل[١].

والأدب ينقسم إلى أدب اجتماعي وأدب شخصي..

والأدب الاجتماعي هو الأدب الذي يراعيه الإنسان في أفعاله وأقواله تجاه الآخرين.

وأما الأدب الشخصي فهو عبارة عن أدب ولياقات يراعيها الإنسان بالنسبة إلى نفسه كالذي يعبر عن احترامه لنفسه.

وهناك ارتباط بين هذين النوعين من المنظور الفطري الذي يجده الإنسان السليم بالتأمل والغور في فطرته الصافية والمستقيمة كما يرصد ذلك في علم النفس والاجتماع، فرعاية الأدب اللائق مع الآخرين يعبّر عن احترام الإنسان لنفسه، وما يستبطنه من علائق ومبادئ كامنة في داخله، كما أنّ احترام الإنسان لنفسه يعبر عن

---

(١) يطلق الأدب على معنيين:

الأوّل: أساليب التعبير القولي الإنساني عن مشاعره وعواطفه وأفكاره وخواطره وهواجسه سواء كان ذلك بالنثر أو النظم، وباللفظ أو الكتابة، وربما يوسع لمطلق الأدوات الفنية حتى الألحان والرسوم والنحت وغير ذلك.

الثاني: كيفية تعامل الإنسان مع الآخرين مما يعبّر عن عواطفه وأفكاره تجاههم وكذلك مع نفسه، نظير الآداب الاجتماعية العامة المعروفة مثل آداب القدوم على الآخرين والجلوس معهم واستقبالهم والتعامل معهم عند اتفاق مناسبة من مصيبة أو فرح أو غير ذلك، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

احترامه للآخرين، ولذلك يمكن تقييم شخصية الإنسان من حيث مدى استقامتها واضطرابها من خلال المؤشرات الاجتماعية والفردية.

ويعتبر الأدب مع الله تعالى ضرباً من الأدب الاجتماعي بمعنى عام، لأنه يمثل أدب التعامل مع آخر هو الله سبحانه وتعالى، لكن موقع الإنسان بالنسبة إلى هذا الآخر سبحانه وتعالى يختلف عن موقعه بالنسبة إلى ما عداه مثل موقعه بالنسبة إلى بني نوعه بشكل عام وأصحاب الوشائج معه بشكل خاص، لأنّ الله سبحانه هو الخالق لكل هذا المشهد والمخطط المدبر له، ويمثل الإنسان جزءاً ضئيلاً من هذا المشهد الواسع والمعقد والمترامي الأطراف، فوجود الإنسان وكل ما حوله يشير إلى هذا الإله، وهو يعيش معه في جميع أحواله بأبعاد وجوده كلها، فلا يخفى عليه شيء من أسراره و بواطنه كما وصف ذلك كله في القرآن الكريم على أبلغ وجه وأروعه.

وللآداب أبعاد متعددة تُعبِّر عنها بوجه عام، منها:

١-البعد العقيدي: فالأدب كثيراً ما يمثل مجمل عقيدة الإنسان في شأن الحقائق الكبرى المتعلقة به وبما حوله.

٢-البعد النفسي: إذ يعبِّر الأدب عن مشاعر الإنسان من خوف ورغبة وانفعال ورجاء وإحباط وحياء وغير ذلك، كما يعبِّر عن طبيعة شخصية الإنسان ومكوناتها.

٣-البعد الفكري (العقلي): إذ يعبِّر الأدب عن المستوى الفكري للإنسان، ومقدار واقعيته وإدراكه لنفسه ولما حوله من الأشياء.

٤-البعد القيمي: إذ يعبِّر الأدب عن رعاية حقوق الآخرين والاستجابة المناسبة لها.

٥-البعد الحِكَمي: إذ يعبِّر الأدب عن مدى انتباه الإنسان إلى سنن الحياة في ما تؤدي إليه من سعادة وشقاء.

٦-البعد الاجتماعي: إذ يتضمن الأدب الانتماءات والعلائق الاجتماعية، وأسلوب تفاعل الإنسان مع المجتمع.

ولو أنّنا تأمّلنا كل أدب من الآداب الاجتماعية وحللناه وجدناه أنه يحمل مؤشرات مختلفة في شأن الأبعاد المتقدمة.

ولأجل ذلك فإنّ للآداب الاجتماعية أهمية كبيرة في الحضارة الإنسانية والثقافة البشرية، وهي بالنسبة إلى كل أمة مؤشرات على العقل والسلوك الجمعي لها، كما أنها أدوات للتربية الاجتماعية السليمة والفاضلة.

فهذا حديث موجز عن الأدب على وجهٍ عام.

وأدب البسملة هو من جملة الآداب التي اشتمل عليها القرآن الكريم في العلاقة بين الإنسان وبين الإله الخالق، فهي تبيِّن إحدى اللياقات الأدبية من الإنسان تجاه الخالق بالابتداء باسمه، كما أنها تعبِّر عن لياقات للخالق تجاه الإنسان وهو الاتصاف بالرحمة وما تعبر عنه من معاني الود والمحبة والرأفة والعناية والرفق.

ففي البعد العقيدي: تمثّل البسملة الاعتقاد التوحيدي بالله سبحانه كإله، بل تمثل الاعتقاد بأهليته حصراً للابتداء باسمه على وجه الخضوع والتعظيم، كما تمثّل أيضاً اعتقاد الإنسان بعناية الله سبحانه به.

وفي البعد النفسي يعبِّر هذا الأدب عن مشاعر الإيمان والإذعان والتعظيم والخضوع والحمد والشكر والاستعانة تجاه الله سبحانه.

وفي البعد الفكري العقلي[١] يعبر هذا الأدب عن وعي الإنسان بأنّ هذا الكون صناعة الإله الخالق وهو تحت تدبيره ورعايته، ولذلك فهو يستوجب الحمد بما يتمثل فيه من صنعة وإتقان وإبداع، ولذا كان حريّاً بهذا الأدب.

وفي البعد القيمي والأخلاقي يعبِّر هذا الأدب عن ممارسة الإنسان لرعاية حق الله سبحانه بالنظر إلى كونه الإله الخالق والمنعم في تعظيمه و الخضوع له والشكر له بالابتداء باسمه الكريم.

وفي البعد الحكمي يعبِّر هذا الأدب عن أنّ الإنسان يرى أنّ في الابتداء باسم الله سبحانه أثراً إيجابياً في الفعل الذي يبدأه باسمه، فهو يوجب البركة في الفعل والنماء فيه، لأنه خطوة ملائمة في الاتجاه الصحيح، وهو نظير ابتداء الإنسان لقائه مع الآخر بالأدب والتحية، أو انتفاعه مما ييسره له الآخر مبتدأ بالاستذكار لموقفه في هذا التيسير والفضل.

وفي البعد الاجتماعي يعبّر الابتداء بالبسملة عن انتماء الإنسان إلى المجتمع المسلم، حيث إنّ البسملة بهذه الصيغة التوحيدية الخاصة مما جاء في القرآن الكريم ـ الذي هو رسالة الله سبحانه في دين الإسلام ـ.

هذا إذا لاحظنا البسملة من زاوية الإنسان الذي يتلو البسملة.

وهناك زاوية أخرى في البسملة، بالنظر إلى أنّها أدب منزل من الله سبحانه، إذ هي جزء من السورة التي أنزلها، فهو أدب داخلي فيها، كما أنّ لها بُعداً مَثَلياً ـ بيّناه من

---

(١) وقد فصّلنا هذا البعد في الإيضاح الثالث كما ذكرنا البعد القيمي والحكمي أيضاً في بيان العلاقة بين هذه الأبعاد الثلاثة.

قبل ـ أرسى من خلاله أدب التسمية والبسملة للإنسان على وجه عام، وقد لوحظ من خلال اهتمام القرآن الكريم بتعليم أدب الحديث مع الله سبحانه والتعامل واستحضاره في مختلف الأحوال، وكذلك آداب أخرى مثل أدب التعامل مع الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وكانت هذه العناية بتعليم الأدب اللائق من جهة أنّ حريّة الإنسان في الأدب ـ كما جرى عليه بعض من ينسب إلى التصوف ـ يؤدي إلى حدوث اختلالات في الأبعاد المتقدمة كلها..

فقد يختل البعد العقدي، لأن بعض الآداب مبدأ لعقائد مختلفة وخاطئة مثل عقيدة الغلو، أو التفويض وذلك أمر مشهود.

كما يؤدي إلى الخلل في البعد النفسي من حيث تنظيم المشاعر المناسبة للإنسان من خوف ورجاء ومحبة وشكر، وهذا الخلل أيضاً وقع في بعض المناهج التي تحررت عن الآداب الشرعية وابتدعت سلوكيات أخرى للارتباط بالله سبحانه.

وكذلك يؤدي إلى الخلل في البعد الفكري من وجوه منها: أنّ الإفراط في بعض المشاعر مثلاً يمكن أن يؤدي إلى تغيير الفكر فيوجب الاعتقاد بحلول الله سبحانه في الإنسان، وقد وقع ذلك أيضاً في بعض المناهج المشار إليها.

وكذلك يؤدي إلى الخلل في البعد القيمي بالوقوع في أمور هي في حقيقتها إساءة إلى الباري سبحانه وتعالى وانتهاك لحقه.

ويؤدي أيضاً إلى الخلل في البعد الحكمي، إذ يؤدي إلى سلوكيات تخرج عن الاعتدال إلى منحى الإفراط والتفريط.

وتؤدي إلى الخلل في البعد الاجتماعي من جهة تكوّن جماعات وفرق خاصة يفصل بينهم التميز في الآداب الخاصة، فإنّ الآداب والشعائر هي التي تجمع وتفرّق الأقوام، وهي معالم على الانتماءات الدينية والاجتماعية.

فهذه وجوه من الاختلال التي يمكن أن تحدث من الحرية في استحداث الآداب، وقد وقعت هذه الاختلالات كلها لدى جماعات من المسلمين خرجوا عن الآداب الدينية المقررة.

ولنرجع إلى الحديث عما تمثله البسملة من جهة الله سبحانه، والذي أنزلها كآية تتلى في صدر السور القرآنية.

فالبسملة تمثل عناية الله سبحانه بترسيخ الأبعاد المتقدمة التي شرحناها.

ويضاف إلى ذلك أنّ توصيف الله سبحانه نفسه بالرحمن الرحيم يمثل أنّ الله سبحانه قرر أنه ينبغي له تعالى في عظمته وقدرته وحكمته وعدله وكرمه أن يستقبل الإنسان والخلق بالرحمة البالغة والأكيدة.

وبما ذكرنا: تتضح الأبعاد المتعددة للبسملة التي يمكن أن يستحضرها الإنسان عند قراءة البسملة، فهو يستحضر عقيدة التوحيد كلما بدأ عمله بالبسملة فتترسخ فيه هذه العقيدة الراشدة والمهمة ويتذكر فكرته الصائبة حول خلق الله سبحانه وتدبيره لهذا المشهد، ويشعر بالأدب والخضوع لله سبحانه، كما يرجو بركة الله سبحانه في عمله الذي يبدؤه بالبسملة ويجد انتماءه إلى القرآن الكريم ودين الإسلام والمجتمع المسلم.